رماد على الاسفلت

قصة بقلم مطاع صفدي

بينما كنت أصعد درب الطين ، بين مخيمات الطين ، كان يروق لي أن استمع ببلادة لكل لسان يلغط بحديث ما خلف الجدران الموحلة ، لا أعبأ بسوط الريح تردني عن ذرى الهضاب ، باردة مثلوجة ، على جسم مشـلوج يتحرك دونما هدف . الدفء حلم لم ينله احد هنا . ولاحديث وراء جدران الطين إلا كلمات مقتضبة آلية تتناول حاجات الأكل والحطب والموت. ليس من يفكر . لا حاجة للتعبير . نحن ذاهلون ..

أنا أصعد الطين ، وأبواق السيارات السريعة تزعق على طريق الأسفلت في أسفل الهضبة. الاسفلت الناعم ، اللامع تحت قطرات المطر.. اللامع أكثر من عيوننا .. يا لها من دقة !

لا شك أنهم عالمون بعودتي. وإلا لما كان لي استقبال على طريقتهم: وجوه مسودة تلوح خلسة من الحفر في الجدر . ونساء يفتحن الأبواب على وقع خطاي وينظرن.. هكذا مجرد نظر ، والاطفال أغبياء يحملقون . وعندهم ثمة إدراك : غريبة انا عنكم جميعاً ، من يعرفني ومن لا يعرفـني ، أليس كذلك . وما هي حصيلة كل ذلك عندي ؟ كمية لا وزن لها ، كما اعتدت .

وهذا الشعب أخيراً .. أستطيع أن أهمله . وأسير مكملة طريقي الاولى. فأصل كوخي في المنعطف الاخير عند قمة الهضبة . ولكن .. لتدفعني إذن قدماي . هكذا حين لا تتضح لي إرادتي .

إنه قاعد القرفصاء على المصطبة يلتقط بعض أشعة من شمس الشتاء الراعشة:

– لا شغل يا ابراهيم ؟

– ... وأنت ؟

– لقد عدت .

– إذن؟! أجل.. لدي كتب أقرأ فيها .

مسكين ! لفظ أعود اليه قسراً . ولكن لـماذا لا أقوله بهدوء، بمسكنة. لماذا لا أعترف به . أو ما آن لي ان اتنباه،أن أشتق قاموسي كله منه ، وان يكون وثن حياتي، إن تبقى لي ثمة حياة. اي ثورة ،اي تمرد ! يثب الحيوان من واطىء الى عال . فما هو عال عندنا، ما هو الأحسن هنا ؟ يتحدثون عن الحياة الرائعة . اتكون اعظم قيمة من الموت ؟ ظننت يوماً . انه لا بد أن يكون في مكان ما، واقع من هذه الحياة الارقى والاروع. حياة أدفأ ، أحق بالأمل والعيش .. فثرت . تركت ابي الشيخ وزوجه ينجبان أطفالاً بعد أطفال في المخيم . وهرولت الى المدينة. لقد كان لدي شهادة تخولني التدريس ، حصلت عليها من الوطن المفقود فلسطين. وهكذا غدوت معلمة في مدارس اللاجئين، تحت اشراف تلك الهيئة المأجورة لاذلالنا . بيد اني رجعت لألف سبب .

***

إبراهيم ، انا هنا ، منذ عودتي ، تحت سلطانكم جميعاً ، منذ زمان طويل، طويل ، كله حاضر مرعب شاخص الي بجمود الأبدية. انا في مسافاتكم، وطأتم ظلي ألف مرة. انا في حدوسكم، تحت مشاعركم. إمتصصتم شخصيتي بأحاديثكم الصامتة ، المخيفة عني. انا شيء تستحوذون عليه بسهولة. تحددونني في أطركم. تكثفونني تحت برودة نظراتكم ووقاحتها . تجعلونني ظلاماً . فما انا بعد إلا سؤال جريح دائماً : ماذا تريدون مني ؟

لقد رجعت ، ودخلت نظام حياتكم مرة اخرى. لم يحس بي ذلك النظام بعد. ألم يحدث شيء جديد لكم .. لي ؟ بلى ، انت اصبحت تقرأ. وهكذا صرت شبحاً يطفو فوق شخصك الحقيقي، المتضائل باستمرار. اصبحت تقرأ وتمعن في التفكير ..ما هو وثنك الجديد يا صديقي —صديقي الذي يضحكني بقسوة النشيج — أتكون « الحياة الاروع» في مكان ما .. أي مكان خارج مخيم الطين ؟ دعني إذن استميت في ضحكي .

كيف تعلمت ان تكتب وتقرأ يا ابراهيم — لماذا .. لا أدري. تلك قصة طويلة تعد بالسنين منذ ان تركتكم. فهل تحب حقاً الحروف، هل استعبدتك الكتب يا أخي. هلا شوهتك افكار الآخرين وتعاليمهم ، فادخلتها وجودك. وجعلته وجودهم ؟ ألانك تحس انك جاهل واني المتعلمة؟ ما هي معارفي انا يا ابراهيم؟ ليست هذه ميزة لي . لست انا غنية بها . وانت فقير منها. لاتفصل بيننا افكار مجردة واحكام عامة . فانا لست ابيع السذاجة بالدقة والحدس بالتفكير والحياة بالقراءة. هل ظننت ان العالم ، عالم الغربة، هذا الوجود الجديد الذي يتحدانا بعد ان اقصينا عن اوطاننا ، يحتاج الى العلم، لكي نسيطر عليه. كما خيل اليك اني فعلت انا ذلك عندما هجرتكم الى بيروت؟ أم انك تود لو تسيطر علي لا تترك مني جزءاً يفلت منك ، فلا أعود فأقول لك كما فعلت في الماضي: إنك لا تفهمني !

حادث لا تزال ذاكرتك تمور حوله كأنه قطبها. فقد فزنا مرة بخلوة بين صخور البحر . وهناك تحدثنا طويلاً . وفي النهاية كان لا بد لنـا ان نجابه رغبتنا بالقبلة ، بحركة ما تضمنا بعنف ، تلصقنا . واما انت فقد كنت ساذجاً جداً . وخيل إلي انك تخجل او تجبن او تحمق. حتى صرخت بك: لن تفهمني يا هذا ، وانت جاهل الى هذا الحد . تلك صرخة لم تنسها مطلقاً .

وأنا.. تعلمت أشياء منذ بعدت عنك. فعرفت الآن انك كنت يوماً تشمني زهرة فصرت تتأملني فكرة. كنت لك وثناً واضحاً من اللحم والدم، والآن كالاله المطلق بحاجة الى وساطة نبي ورسالة ذات تعاليم . كنت تغضب واليوم تحقد . كنت تحب واليوم تتردد . كنت تأخذ اشياء الحياة بهيجان فنان ، بعفوية إنسان . واليوم تقبل عليها بخيالك فقط . بشخصك المتعلق الواهي. هكذا يا صديقي انتقلت من الأشياء الى رموزها . من الحقيقة الى خيالها ، من الصدق الى النية السيئة .

كنت تحس قبل رحيلي انني راحلة يوماً، انني اعد نفسي فجأة للفرار، للانفلات من مخيم الطين ، الى حيث لا تعلم ولا أعلم. وكان الخوف، خوفك من تلاشي "القريب من عالمك، يجعلك عندي مخيفاً. كم مرة كنت تتحدث انت فيها عن سخافات —ما اعمقها اليوم— بينما اشردنا الى الافق قليلاً. وما البث حتى انفلت واجفة. فانت لا تحب الافق. لا تعرف البعيد. ولكنني انا.. كنت أضل شيئاً فشيئاً .

كنت تقتلعني بقسوة من الكتاب . لم ترق لك إطراقي الطويلة فيما لا تفهمه . الكتاب عدوك .. آه وكان عدوي ايضاً. اذن ماذا أفعل يا ابراهيم في أسر المخيم ، في الشقاء والقذارة والملل الأجرب؟

وجاء ذلك اليوم الذي وصل فيه صالح، موظف من مؤسسة اللاجئين. هاهو اسمر بلطف . انيق أناقة تمجد جاذبيته . طويل بأناة . مبتسم بثقة. معربد في عينيه . مخاتل بألفاظه . يتحدث .. فكل شيء يجد تبريره في كلامه، وجعله شيء ما يكرر زيارته. وانت !.. وثبت عليه مرة. كنت تريد قتله بسكينتك الرشيقة . تلك وسيلتك الوحيدة . ولكن منعـتك . ولولاي — أبيت العفو .. لن تحميك امرأة . أليس كذلك ؟

سيخطفني هذا الغريب منك ، من ابي، من شقاء لا حد له . سيتوسط لي في وظيفة معلمة .

وثار الشيخ ابي . لا يريد ان تشتغل ابنته الشابة . ليس الشغل للنساء . وخاصة في بلاد بعيدة زاخرة بالشر ، لا نعرف عنها شيئاً . أأكون كنساء اليهود ! يا للعربي ، إنه انوف لا ينحني ليلعق حتى دمه .

يجب أن ابقى في البيت ، أي بيت من طين . بين جيش من الديدان الأطفال الزاحفة الناعقة . وحينما يموتون جوعاً او برداً او حقارة ، فلأمت معهم .. هكذا أفضل : أفضل من ان تعمل المرأة !

ذلك كله ، بينما كنت أحب عنادي وأنميه. برزت إرادتي كالقدر الأسود. أصبحت ذئبة، في حقل الثلج،ذئبة برغبتي في ان انشيء لي حياة أروع وأحق بأملي،وملكي وحدي. فليقاومني الكون بأقراره المحاتلة. فلتتألب علي عصور القتام كلها من خلال ابي،وشرسة الصحراء من خلال خطيبي وحقد التقاليد من خلال قومي.

ثم .. تلك الليلة السوداء ، كانت مهاترة بيني وبينك يا ابراهيم ، داخل كوخنا ، بينما أبي على طريق الاسفلت يعد لنا مفاجأة دامية .

– إحذري يا آمنة ... لن تفلتي مني.

– أنت ايضاً ؟

– ومن غيري .. أما سمعت ما تقوله العجائز في حينا : اعذب ما يتذوقه الشاب دم حبيبته ..

– كلكم سفاكون .. سفاكو نعاج .

– لا تقولي هذا .

– بل أقول .. هل قدرتم مثلاً على اليهود ؟

– هكذا تعلمك الكتب؟تكذبين يا آمنة، لم تكن حرب شجاعة حربنا .

وهنا دخل أبي يحمل جثة طفلة له، عجينة من الدم واللحم المشوه الدامي. نظر إلي ثم قال بهدوء الموت :

– لعلك تثوبين الى رشدك أخيراً..الا تريدين المال ، أليس هو قصدك من وراء الوظيفة ؟ إذن لقد حصلت لك عليه . ضحية اخرى على طريق الأسفلت.دهست طفلتي سيارة ستدفع ديتها قريباً اربعة آلاف ليرة..تكفيك.!

لا لن تكفيني . أتظن أنني أريد المال ؟ كم أنتم سذج مجرمون !

***

هاربة أنا يا ابراهيم، هاربة. لن تقف بدربي . ولن يعلم احد بي: الى اين واين مكوثي ؟ دعني قبل ان أفتخر انا ايضاً بالجريمة . قبل ان ارفع رأسي عالياً بين قومي . لقد حميت الشرف بالدم . دعني قبل ان اتهم نفسي . فأنا بريئة ، بريئة ، أطهر منكم جميعاً . دعني قبل ان يصيبني هوسكم وأفقد عقلي.

هكذا وثبت الى سيارة صالح وانطلقت معه الى بيروت . وهناك .. غرقت في لجج حياة جديدة، أعظم ما فيها ضجة المدينة، تتحداها ضجة الخضم السابح على اقدامها .

وبدأت بتحسس وجودي كفتاة في نظرات العابرين بي ، في الشوارع، وفي نظراته هو ، كلما صدفته عن موعد أو عن غير موعد ، في اروقة المدرسة وفي حفلات الهيئة التدريسية .. وفي غرفتي .

وأما أنا ، فلا انتبه لشيء . كانت حياتي تضج من حولي ، ولما اعها بعد ، كالمرتج عليه .

كان الموج عارماً ، وعهدي قريب بالعوم . ليس لي عنه الا معرفة نظرية اشتققتها من الروايات ، وشهوة نارية في اعماقي تدفعني خارج ذاتي لتحسس كل شيء ، كل غريب ، كل جديد .

الكأس في يد واثقة لن أردها . والصدر الواسع لن أتقيه . والدعوة الى كل مجهول ظليل بعيد ، أنا لها ملبية ظمأى . والثياب بأشكالها المختلفة تبرزني كما احب : غامضة ، قاسية ، حلوة رزينة ، معلمة . والاجواء.. إني اميل الى اشدها ظلمة .

غرفتي المطلة فوق صخرة مخفرة على البحر ... أحبها ، وأكدس فيها مواعيدي وذكرياتي ، التي انساها حوادث ، وتبقى بعض عطر ، بعض ضوء .. وسيجارة نصف فانية ، وهدية .. ورقة او صورة . وقراءاتي وأحلامي الشرود . وإذ تطبق السماء على وثبات الموج ويرعد العالم خارج نافذتي ، أتبنى انا العاصفة على طريقتي ، وأجعلها تفجر ما بي من شر لذيذ ، أخشاه ويؤلمني، وأزيد من حدته موسيقى وقراءة ترتيلية، وخمراً ، وتأملاً سوداوياً ... ورجلاً ما .

كل ذلك في حركة واحدة هادرة لا هوادة فيها .

فأنا من ، وما الناس ؟ فليبقوا إذن ، أبداً .. بعيدين في وجودهم الهامشي . ولأبرز انا عليهم ، على عتمتهم المادية . وليتنظموا ما شاء لهم النظام . ولتكن لهم سلاسلهم وقيمهم المحنطة . وليغرقوا هم في حفرة اهرام مجهول الوجود ، يخلد فناءهم . وليتشدقوا بالقومية ، بفلسطين ، بالعالمية . وليتاجروا بكل شيء ؛ إلا بي . فلست ملكهم ولا ملك اقاويلهم .

قاموسي جديد ، جديد الى درجة انني لما أعرفه ولما احط به ، وان كانت حروفه تحرق يدي .

فجأة شعرت انني ملقاة منذ زمن ما تحت صخرة سوداء . لقد قذفت بنفسي تحت عبء التدريس . وقيدت حريتي بواجب العمل الصارم . ورحت أنعم بشيء من التعذيب السرّي، أنفذه فيّ. تعذيب أتقنته ساعة بعد ساعة ، وحادثة تلو حادثة ، ودرجة إثر درجة . فلقد أقمت في وجه إعصاري شجرة زيتون عتيقة يتحطم عليها أبد التحطيم .

ألفت القسوة . فجعلتها طبعي – ولعلها هي من قبل كذلك – اروض بها شيطاني الذي احمله بين اضلاعي : قلبي المتمرد بوحشية .

أأقول (شيطاني)؟إذن لقد بدأت فكرة الخطيئة تأكل ثقتي بشجاعتي. فشبحها يقتم دربي رويداً رويداً .

ساحتي الجديدة المدرسة. المدرسة المختلطة وفيها المدرسون والمدرسات. ويعج فيها الأطفال المشردون من بني قومي . الأطفال اللدنون ووجودهم البكر . ما ألذ ان يعبث بأفكارهم . تربة خصبة للشوك والزهر معاً . فلأعلمهم كيف يتلذذون النقمة ، هذا الترياق الاسود ، للابقاء على الأموات بين الأحياء ، دون دفنهم نهائياً ونسيانهم . فلأجعل منهم شيوخاً بمصابهم . ليس لهم ما يحبون ويقدسون . كل شيء في حياتهم يدعوهم الا يكونوا أطفالاً ، ألا يكونوا طيوراً مغردة .. وكيف ولم يعد لهم أعشاش ؟

ووقعت حادثة اكدت لي برنامجي ، فعلمت أنه ليس مجرد برنامج،بل مبدأ حقيقي لأمة تدفع عنها الموت بشراسة المجانين .

زارنا مرة وفد أميركي ممن يدعي انه صديق اللاجئين . ووقفت سيدة منه ، تلم بالعربية قليلاً ، تخطب في طلاب صفي . وكان مما قالته :

– يا أعزائي الصغار . إن العالم (الحر) لم ينسكم ، فأنتم دائماً موضع شفقة كباره وصغاره وعطفهم . فهم يذكرون احوالكم دائماً . ولهذا يمنحونكم ثيابهم ومالهم والعابهم..وقد جئناكم بها من الشعب الأميركي صديقكم.

وهنا وقف طفل شديد السمرة . كنت احب فيه سلاماً غانديا وطمأنينة شرقية عتيقة . وصرخ بوجه السيدة : نحن لا نريد شفقة اطفالكم ، ولا خرقكم البالية ولا صداقتكم .. نحن لا نريد .. لا نريدكم .. لا .

وضاعت الفاظه بغصص النشيج .

وسمت هذه السيدة نفسها بعد قليل تروي الحادثة لرجل منهم قائلة بالانجليزية « وحوش.. وحوش حتى صغارهم .. بدو . »

شعرت أنني ظفرت ، وفي لذة ظفري تشف دام ، كما هي كل لذاتي . وأجبتها متدخلة : « وأنتم قديسون يا سيدتي اليس كذلك ؟ إنكم تخترعون الكوارث لتجدوا (مصرفاً) لصدقاتكم يعمل بالفائدة .. عودوا لبلادكم، قولوا إنكم وجدتم شعبنا متوحشاً..أكثر وحشية من قومكم..لا تنسوا هذا !

وجاءني صالح الموظف الكبير في مؤسسة اللاجئين :

—سمرائي ، يا لعنفك الجميل. إنه يزيد من جاذبيتك، ويجعلني أخشاك بقدر ما اهواك . ولكن هلا احتفظت به لنا وحدنا . فهم لا يحبون طريقتك في تعليم الأولاد ، وكذلك سلوكك تجاه الرؤساء والوفود، لاسيا وأنك من جهة اخرى أوقدت النار بين شباب الموظفين والمدرسين . والرئيس يكاد يطردك . لولا انه الآخر يطمح بحب أميرة عربية سمراء مثلك . عزيزتي ، إصغي إلي.. ألا ترين معي أنه حان وقت إعلان خطوبتنا .. لعلنا نضع حداً لكل شيء ؟

وتم موافقتي على اقتراحه بشأن خطوبتنا ، دون أن أدرك خطورة ما فعلت . فهو منذ ان امتهنت التدريس يحاول ان يقرن حادث هجري للمخيم بشخصه . وراح يتصرف بشؤوني ، او هكذا ظن ، معتبراً نفسه مسؤولاً عني . دون ان يحس التناقض الذي يرتكبه حينما يدعي انه حررني من عبودية الشقاء والتقاليد ليوقعني هو في اسر سلطانه . وهكذا بقي ثلاث سنين لا يدرك سبباً لاحجامي وتمنعي عنه . وكم أدهشته لامبالاتي تجاهه ، وهو الذي يعتقد برجولته وجاذبيته وثقافته ومنصبه (الأميركي) ما يجعل أي فتاة ، فتاة بدوية مثلي ، ترى فيه نموذج احلامها . والحق انه لم يشعر قط انه لم يتح لي الفرصة للاعجاب بصفاته . فهو على الاقل ما كف لحظة عن ارغامي بالاعتراف بميزاته ، وقمري على تمجيده . بينا كنت أنا أحاول أمراً آخر . كنت ارفض كل سلطة ، وأرغم ذاتي على اقسى حرية . حريتي حتى في تعذيب نفسي والآخرين .. بعض الآخرين. مثلاً هذا الشباب المدله حولي . شباب عربي مائع ، لم يبق له ما يتغنى به الا شاربه وحذاؤه اللامع .. وينسى انه موظف مأجور .

وأتجرع كأسي على مهل . وتروح ضجة الجاز تفتك برزانتي ..على مهل ايضاً . والنار تؤججها الخمرة في جوفي . ونار اخرى تؤججها الشراسة في قلبي . والضيوف .. أميركان وإنجليز وفلسطينيون ولبنانيون مرحون .. ورنات الكؤوس وضحكات النسوان والأبواق ، والبناء كله .. في رقصة سخيفة مفرقعة ملعونة.

هذه جلة من النعيق والحقارة ، وأنا فيها.. في مركزها ، بركان يتفجر الى اسفل ، مبتلعاً جبروته بهدوء المستنقع .

ما هذا .. إنهم يعدون خطبتي !

نتيجة بلغتها بصعوبة شاقة خلال الف فكرة. كنت اعتقد ان الخطر يحدق بأي كائن إلاي . فأنا .. انا بعيدة عنهم جميعاً ، عن مؤامراتهم . حتى اني بعيدة عن قذاراتي وانحرافاتي كأني شخص آخر ، هادىء كالفكرة المجردة ، بدون تفاصيل ولا انفعال . انا بعيدة في كوخ الطين . هناك .. في صمت الحيوانات ، في كمود الفراغ ، في فلك الموت الأصفر البطيء . هناك امضغ مشكلة عتيقة لا حل لها . هناك .. انا بدوية وسخة ساذجة ، حرة حرية من لا يحس القيود ما دام لا يتحرك . واما هنا : ساحاتي كبيرة ولا بد من الحركة الى كل جهة ، من الرقص ، من معاناة كل ما من شأنه ان يذكر العبد بعبوديته والمسؤول بمسؤوليته .

وما ضرني انني وحدي من احس ، وانهم لا يحسون . من قال هذا ؟ بل ربما كانوا ، لأنهم يحسون ؟ يقذفون بذواتهم خارجاً عنهم ليبقوا دائماً على مسافة من وجدانهم ، فيجعلون كل شيء يألم إلا هم . ولهذا يسكرون ويمرحون ويعيشون بين اعدائهم .

ولعلي انا وحدي من اتقنت هذا الفن ، في اللامبالاة ، حتى حفظته وجعلته حياتي ، وموقفي المستمر من احداث واقعي .

صافحت الأميركي والأميركية ، والانجليزي والانجليزية . وربما كان بينهم يهودي ويهودية. وعشت على مال الصدقات. وعلمت واشتغلت بمؤسساتهم ، المخدّرة ، التي تنظم موتنا بعبقرية القرن العشرين. واكثر من هذا هجرت تقاليدي ، واستعرت غيرها ، بل تبنيت نقيضها . وهل انا إلا طالبة النقيض لكل ما عشته في ماضي من جحود وضآلة وغثيان ؟ صرت جريئة وقحة . اتقن الشراب والاغواء واللعب . والحياة العصرية بتمامها .

عشت في غرفة منفردة على البحر . تجوات بشوارع المدينة ليلاً. وانسللت في الازدحام . وطربت للضجيج. وكانت لي المواعيد السرية والقبل المسمومة. تملت الحقد وعفته . أتقنت الحيوانية والانحدار والنذالة البريئة . وعرفت كيف تستنزف ساعات العمر . وكيف يرقص المرء على خفقات قلبه. كيف ينسى ، لانه يريد ان يتذكر كل شيء .

وأنت ايها الموظف الكبير ، يا حبيبي الكريه ، يامن ستصبح زوجي الحقير : ألا تعلم انني قارعتك دائماً وابداً. أولم تشعر انني اتخذتك البؤرة، أكثر استفزازاً لتجربتي الجديدة ؟ ألم اكتشف فيك مزيجاً ، متقناً جداً ، من كل العناصر السفلى من مشكلتنا ؟ ألم اعرف فيك العربي، الخائن المطلق. الخائن الى حد النية السيئة، الخائن الذي صدق انه خادم لأمته كبير؟ وخطوبتي منك ذروة هذه المقارعة ، هذا الاحتكاك بالضد ، هذا التأزم المعزق . وحفلتنا الآن آخر ساعة لنا .

أتعدني للزواج ، للاستقرار على ابشع حال؟ للاستغراق في همومفردية لا حد لها ؟ اتحسبني احاول البناء . كلا ! فأنا للتهديم . للتهديم عواطفي وإمكانياتي وأعمالي وانوثتي. انا لكي لا تطبق علي قواعد المجتمع الحي ببطء.

اتريدني زوجة لكي ازيد من استقرارك ، لكي اضيف الى عنعنات شخصيتك طابعها الأخير ؟ ومن انا بعد؟ زوجة تساعدك على الخيانة الى الابد ؟ جسد امير عنيف ؟ اتذكر القد قلت (لندع عنفي بيننا وحدنا) . واما خيانتك .. فللأمة كلها . كفى .. اردد انك خائن ، وما انت كذلك . لقد اضعنا المقياس الذي نفرق به الشرف عن الخيانة ، والشرفاء عن الخائنين. اصبح بالخيانة لاننا هكذا نحن كلنا اليوم فلنخاطب الآخرين إذن كي نخاطب انفسنا خفية، لنعتبر اعداءنا على مسافة منا. ولكن لنصب كامل حقدنا على من في النقطة الأولى ، علينا نحن . لنجعل من ذواتنا اخيراً براكين تفجر ذاتها فتفجر غيرها .

ضارية أنا : كل لذاتي تشف مسعور . وإن لم استطع شيئاً ، فسأكون انا نفسي فريستي .

كذلك بيننا يا صديقي دماء ، وشيخ بدوي دفع بطفلة له الى طريق الاسفلت ليأخذ دية دمه النقي ، ويبقى على عاطلة عن عمل لا يلوثني . واما انا فتشهيت اللوث لشدة الطهارة. وتشهيت من وراء العمل كل نقيض لي : انا الأميرة البدوية ، بنت سيد العشيرة اللاجئة .

هربت معك. وخلفت ورائي جريمة لا يحس بمسؤوليتها احد. ولكن يبدو انني وحدي من اصف تلك الفعلة النكراء على طريق الاسفلت ، تلك اليد المرتعشة التي دفعت بطفلة تبكي بين عجلات سيارة . مجهولة في ظلمة الليل . هذه الفعلة اصفها بالجريمة . اأكون وحدي المسؤولة عنها إذن؟ ولو خضعت لمشيئة الدم ، وبقيت في مخيم الطين ، اكنت أقل مسؤولية، او كدت اكفّر عن مسؤولية تامة حملني اياها ابي الشيخ عنوة ؟

ما تركت مجالاً لمثل هذه الحكمة تقوم في هواجسي. بل وجدتني في عالمكم دفعة واحدة ، اعيش جميع صيغه باسلوبي . اسلوب التشفي القاتل .

اذن إنني هاجرتك يوم خطبتك ، ومن صميم احتفالك بها. هاربة وأنت تعلم انني متقنة الفرار . فلا تغضب . او تعرف الغضب . مهما يكن ، فليس ثمة ما هو اصيل في حياتك . فاستعر لك امرأة اخرى . واخترع عزاء

مرثيّة جيكور

يا صليب المسيح ألقاكَ ظلاً فوق(جيكور)[1]طائرمن حديد
يا لظلٍّ كظلمة القبر في اللون ، وكالقبر في ابتلاع الخدود
والتهامِ العيون من كل عذراءَ كعذراءِ (بيت لحم)الولود .
مرّ عجلان بالقبور العواري من صليبٍ على النصارى شهيد
فاكتست منه بالصليب الذي ما كان إلا رمز الهلاك الأبيد:
لا رجاءٌ لها بأن يُبعث الموتى ولا مأمل لهـــا بالخلود!
ويلَ جيكور ؟ أين ايامها الخضرُ وليلاتُ صيفها المفقودِ ؟
والعشاءُ السخي في ليلة العرس وتقبيـلة العروس الودودِ
وانتظارٌ له على الباب؟..

— «محمـود ، تأخرت يا أبا محمودِ
نادِ محمـــودَ !»

ثم يوفي على الجمـعِ بمنديل عرسه المعقود
نقّطتْه الدماء يشهدنَ للخدر بعذراءَ . يا لها من شهود [2]
لا على العقم والرّدى، بل على الميلاد والبعث والشباب الجديد!
أيّ صوت يصيح : «محمودُ، محمودُ، تأخرتَ !» كالنواح البعيد؟

أين محمود ؟ ليس محمود في الدار ولا الحقل !
يا أبا محمـــودِ
نادِ محمـود . كاد ان يهتف الديكُ وما زال جمعنا في الوصيد
قل له يُبرز الدمـــاءَ فانّا في انتظار لها وشوق مبيد[1]!
ذرّ نجمُ الصباح . محمود ، محمود ، أأقبلت بالدم المنشود ؟
أي جرح ينزُّ منه الدم الموّار في باب داركَ المرصود ؟
انه منك ! منك هذا الدم الثرّ ومن جانب العروس القديد !
الصليبُ ، الصليبُ ! إنّا رأيناه وقد مرّ كالخيال الشّرود ،
قد رأيناه في الصباح . وفي الليل سمعنا كقعقعات الرعود .
أهو هذا الذي يريدون ؟ أشلاءً وأنقاضَ منزل مهدود ؟
أفما قامت الحضارات في الأرض كعنقاءَ من رماد اللحود ..؟
لا ولم تُفرخ العقولُ على المجهول يسبرْن فيه غورَ الوجود ؟
أو يشق العُبابَ قلع يصك الريحَ صكاً إلى البعيد البعيد ؟
أو يـــلمّ النسيمَ عقداً من النور ويذروه باقة من ورود
ساحرٌ فجّر المدى عن مدىً ملآنَ باللحن مُترع بالنشيد ؟
أو تدقّ الأجراس: «ياأرضُ، يابشراك بالحبّ والمسيح الوليد»؟

١ جيكور : قرية الشاعر في جنوب البصرة
٢ من التقاليد المتبعة في الريف العراقي أن يبرز العريس في ليـــلة العرس منديلاً ملطخاً بالدماء يشهد على أن العروس عذراء !

جديداً يناسب مدنيتك ، وطريقتك في سلوان خيانتك .وانا لي عزائي . . هو ألا يكون لي عزاء البتة . وهذا هو الفرق بين نوعين من لاجئين.. اتدري يا اخي انني لم اعد استطيع الفصل بين لاجئين وملجئين . إننـــا جميعاً نكاد نصبح لاجئين .

الآن .. وبعد عودتي من غيبتي الطويلة ، انا انزل الطين . وابواق السيارات تزعق على طريق الاسفلت.و الاسفلت الناعم اللامع عليهدماءطفل، اطفال، من يدري ? وبالقرب منه مخيم لا يحس بشيء. وانا هذه المشوقة، المصبوغة الوجه بألف لون ، الفاتنة وثيابها الحريرية المبتلة على جسدها، تظهره اكثر مما تستره . هذه المرأة الباقة من الحوادث اللابدوية ، الضفيرةالغنوج من الشبق المحموم.هذه الانسانة المجرمة جداً ، المخطئة جداً ، الضالة، المبدعة في الحرام . هذه تستقبلونها جميعكم، وتدعونها تقيم بينكم شهوراً جديدة. كلكم تحسون بخطاياها.ولا احد يدري انهيحس ذلك . اين القصاصون منكم . اين من يجرؤ على العقاب .. حتى هذا ضعفتم عنه !

وانت يا ابراهيم ، لا ادري في عينيـــك لي إلا الحب ، إلا الخشوع والاستعطاف . ماذا دهاك .. الا تعلم انني عدت لسكينك ، سكينك المجلدة ، بدون صدأ . الا ليتك تدري كم انا صغيرة بدون هذه السكين!

هذه الليلة ، سمراء هادئة ، وانت تلج عليّ كوخي النائي ولا تطرق له باباً . تأملني ، ليس بي ما يدهشك . اقترب، كالجحيم من كافر خاطيء تحسسني جيداً، تلمسني بأصابع النار . ما كنت تعرف ذلك من قبل . ماهذاالتوقدالوحشي في نظراتك? إنها النار التي كنت اراها في عيون سكاراي . لا تقدم بهذه الوقاحة ، بهذا اللاحياء. اين خجلك الطفلي ? مـــا كنت تجرؤ على لمس يدي ... والآن ... انك تعريني .

ربما تخفي سكينك في مكان ما، ستلمع اليس كذلك ، فوق عنقي فجأة. الهذا تداعبني ? حسناً ليست هذه قبلات . اتمتص حياتي ? اهذه طريقتك في قتلي ? يا لقوتك الخشنة ، لذيذة شاقة . إحذر يا ابراهيم ، فسألوثك ...

ايها الأسفلت . لم يرض حبيبي ان يدنس سكينه بدمي . إنهم جميعـــاً انوفون اليوم . يحتقرونني ولا يقتلونني . اما يشعرون انني رجعت اليهم بنفسي . ما كنت ادري انني عائدة للعقاب . او انني على الاقل رجعت هنا لألف سبب . ولا ريب . مجرد فرار .

ايها الأسفلت ، قليلا وتجف هذه القطرات من دمي الباقية عليك . ايها الأسفلت الأحمر ، لم يقبل احـــد ان يدنس سكينه بدمي ، إلا انت . . اصطبغت بي ، بين العجلات وصخب البحر . والدية ، سيأخذونها ولا شك . هذا عقابي ايها الأسفلت ، لن يدنس احداً : ابداً ، اليس كذلك?[1].

دمشق **مطاع صفدي**

١ اشخاص القصة خيالية و كذلك حوادثها (الكاتب)